

الفصل السادس الإسلام يتحدّى فلسفات العصر (*)

لعل الأمر اللافت لنظر المتأمل في أمر دين الإسلام هو ذلك العطاء المتجدد لعقيدة الإسلام عبر القرون المتتالية إلى عصرنا الحاضر في أواخر القرن العشرين الميلادي. وبرغم فترات الانكسار العسكري والتراجع الحضاري لأمة الإسلام في أوقات متفرقة من التاريخ في مواجهة هجمات شرسة على أرض الإسلام وحياض المسلمين من الشرق والغرب كما في هجومات التتار من الشرق وإسقاط الخلافة العباسية وهجوم الصليبيين وتأسيسهم الممالك في الشام ومصر والقدس لعشرات السنين، حتى إن بعض الممالك الصليبية عمرت نحو مائتي سنة. برغم ذلك سرعان ما ينهض المسلمون من جديد وما يلبث المارد الإسلامي حتى ينفذ عن كاهله غبار سنوات الضعف والانكسار لينطلق من جديد. رافعاً راية التوحيد، وهكذا الدنيا دُول، والصراع الحضاري جولات، ولا شئ يبقى ويدوم، وإنما الأمر في جولات الصراع لمن أخذ بأسباب النصر واستمسك بالحق وأعد العدة لمواجهة الباطل ونصرة الحق والعدل والحرية، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

وفي عصرنا الحاضر بخاصة وفيما مضى من العصور بعامة، ومنذ أظهر الله دينه ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، وأطل وجه الإسلام يغمر الدنيا بضيائه ويبشر بحضارة الإنسان الحقّة، حضارة التوحيد والحق والحرية والمساواة، ما أنفك أنصار الباطل وجنود الشيطان، وعَبْدَةُ أوثان البشر والحجر والدرهم

(*) نُشرت هذه الدراسة على حلقتين في صحيفة «أخبار الخليج البحرينية» في شهر رمضان ١٤١٤ هـ يومى الجمعة والسبت (١٨/٢/١٩٩٤م) و(١٩/٢/١٩٩٤م) وكانت أولى دراسات (في ظلال الكتب).

والدينار والمال والهوى والشهوات، يدبرون ويكيدون نحو هذا الدين وإبادة المسلمين ولكن: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣]

وبرغم سوء أحوال المسلمين وضعفهم وتخلفهم حضاريا وتقنيا، وبرغم تخلف المسلمين عن تمثل قيم الإسلام من احترام للوقت وإتقان في العمل، واستعمار الأرض والأخذ بأسباب القوة والعدل وحقوق الإنسان من منظور الإسلام، وسوء تمثيلهم لخير أمة أخرجت للناس، الأمة الوسط التي جعلها الله شهيدة على الناس، أمة الرسالة والريادة والحضارة الإيمانية، حضارة الإنسان الكامل وبرغم الجهود الجبارة التي يبذلها أهل الباطل من مختلف الملل والنحل، وبرغم امتلاك خصوم الإسلام لكثير من أسباب القوة والجاه والنفوذ وأساليب السيطرة على الأرض وتجاوزها إلى الفضاء، برغم ذلك يبقى للإسلام بريقه الخاص وسحره الأخاذ، وتبقى المثل العليا عند المسلمين في عصور الضعف والانحطاط موصولة بالمثل الإسلامي والأنموذج الإسلامي الوضئ في عالم الحق والخير والجمال وتبقى عقيدة الإسلام دافعة ومحركة لمكانم القوة لدى المسلمين، وستظل دعوة الإسلام مهوى قلوب وعقول المسلمين وأولى الألباب من جميع البشر، وستظل دعوة الإسلام العصا السحرية التي ينطلق منها المسلمون نحو القوة والمجد والانتصار وتجاوز مرحلة الإنكسار، والمطالع للأحداث المحيطة لن يحتاج إلى مجهود كبير ليتأكد من ذلك، سواء بالنظر إلى أحوال المسلمين أنفسهم أم من خلال استقرار حركة انتشار الإسلام في العالم الأوروبي والأمريكي وفي شمال شرق آسيا.

ولا شك أن دعوة الإسلام لم يتحقق لها ذياك النجاح وذلك الخلود من فراغ ولكن لأنها دعوة الحق، ولأنها كلمة الله الباقية لبنى آدم، وبما وهبها الله من قوة النفاذ والانتشار، ولعن دأب الخصوم والمتحاملون على اتهام المسلمين بنشر

الإسلام بقوة السيف، فماذا يقولون الآن في انتشار الإسلام وبقاء جدوته متوهجة وأهل الإسلام لا يحملون السيف وإن حملوه فلطعن أنفسهم لا لظعن أعدائهم وصاروا كما قال الشاعر:

وأحياناً على بكر (أخانا) إذا لم نجد إلا أخانا!!

- ولكن يبقى الأمل فى هذه الأمة أن يرفق الله بها وأن يهين الله لها من أمرها رشداً، وأن يقبض الله تعالى - لها من يجدد لها دينها ويقودها نحو حياة العزة وعزة الحياة لتأخذ مكانها الطبيعي فى قيادة البشر على نهج الإسلام وهدى المصطفى الكريم - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم -، وفى هذا يقول شاعر الإسلام محمد إقبال: «إن المسلم، وإن كان قد تجرد من أبهة الملك والسلطان، ولكن ضميره وتفكيره لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم، وأنه إن قدر له أن يعود إلى مركزه. كان جماله جلالاً، وكانت له سطوة لا تطاق» (١).

وبعد ... فما أكثر ما أرهق الإنسان المتمرد ذهنه ليشرع القوانين ويضع الأسس والفلسفات، ويحسن أنظمة من وضعه لم يستضى حين وضعها بمصباح الوحي ولم يهتد بهدى السماء فضل وأضل وفى هذا الإنسان المتمرد وضربائه قال الحق - تبارك وتعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]

- لقد كرم الإسلام الإنسان أعظم تكريم، واحتفى بعقله أيما احتفاء ومن أجل كرامة الإنسان والحفاظ على نفسه وعقله ودينه وماله وعرضه كان شرع الله، ولهذا بعث الله أنبياءه ورسله لبنى آدم ليتعهدوا الإنسان بالتربية والتوجيه والتهديب لتتحقق إنسانية الإنسان الحقبة وليتحقق التوازن النفسى والجسدى لهذا المخلوق العظيم الذى جعله الله خليفته فى الأرض حيث استخلفه فى الأرض لعبادته والقيام بأعباء التكليف فى التعمير والسعى ونشر الخير والحق وتحرير

(١) انظر (مع إقبال - شاعر الوحدة الإسلامية) ص ١١٤ للمؤلف.

المستضعفين والدفاع عن الحق والخير في مواجهة أنصار الشيطان وجنود الشر والفساد وعبد الطاغوت .

وفى هذا الإطار وعلى هذا الدرب الإيماني يمضى الأستاذ يوسف الملا فى مؤلفه القيم (الإسلام يتحدى فلسفات العصر) مساهمة فكرية من كاتبنا الكريم - فى أسلوب أدبى - لبيان عظمة دين الإسلام و ثراء شريعته وجدارتها بالسبق والاتباع والخلود، وفى هذا يقول الكاتب الأستاذ يوسف الملا : « لقد بذلت ما وسعنى الجهد وما أسعفنى به الوقت لإبراز دور العقيدة الإسلامية وما تحمله للإنسان من تشريع، ومفاهيم فى شئون حياته، وما تحويه من قيم لتحديد غايته واتجاهه الفكرى وسلوكه الاجتماعى، وما تهىء له من أسباب لتجميع طاقاته الروحية والمادية فتجعله مرتبطا ارتباطا وثيقا بقوى الكون الظاهرة والخفية» (١).

- و لحيوية الموضوع وصعوبة السباحة فى بحاره و خلدجانه رأينا الكاتب حين إبحاره متزودا بكل ما يحتاج إليه الإبحار فى المحيطات الواسعة حتى يصل إلى بر الأمان وشاطئ السلام، فكان - بخق - ربان سفينة ماهراً، وبرغم تناوله لمواضيع وقضايا كثيراً ما تبقّى حكراً على المتخصصين إلا أننا نراه يتعرض لها تعرض الفقيه الدارس الواعى لما يعرض له، نجد ذلك فيما يتعرض له من قضايا التشريع وأصول الفقه، والفلسفات الغربية، ونرى كاتبنا الأديب حين يعرض لذلك يعترف بأنه تناولها « من باب الاجتهاد الشخصى » ويعترف أيضاً بأنه ليس « مشرعاً أو فقيهاً أو مصلحاً دينياً » ولكن الذى دفعه « لتناول هذه البحوث فى إطار الفكر الإسلامى هو » انتماءه لأمة الإسلام واعتقاده العميق « بمبادئ الإسلام وقيمه الأصيلة » (٢).

وقد عالج الكاتب مادة كتابه (الإسلام يتحدى فلسفات العصر) فى أربعة فصول فضلاً عن المقدمة والإهداء، والكتاب فى متنه وبنيته جملة من المقالات

(١، ٢) الإسلام يتحدى فلسفات العصر ص ٨، ٩ .

والبحوث المنشورة لكاتبنا الباحث فى عدد من الصحف والمجلات والدوريات كصحف « أخبار الخليج » البحرينية و« الخليج » القطبانية ومجلات « الهداية » البحرينية ومجلة « التعاون الخليجى » ومجلة البحرين الخيرية وجريدة « أخبار بابكو » وغيرها من الصحف والمجلات .

- وبرغم أن مادة الكاتب نشرت بحوثا ومقالات متفقة إلا أنها تتراص فى فصول الكتاب فى تتابع وتكامل يؤازر بعضها بعضا، وينتظمها بناء فكرى منسجم متناسم، ينطبق ذلك تمام الإنطباق على الوحدة الأساسية التى تكون مادة الكتاب التى هى المقالة كما ينطبق تماما على الوحدات الأكبر المتمثلة فى الفصول التى يتكون منها بناء الكتاب .

ويقوم أسلوب الكاتب فى معالجة مادة كتابه على المجادلة بالتى هى أحسن والاستعانة بالمنطق والبرهان والدليل والإحصاء وأقوال المثقفين مع معسكر المسلمين ومعسكر خصومهم على السواء، ويعرض قضيته بأسلوب التحليل وإبراز البقضية ودعمها بالأدلة المنطقية والنقلية وسوق البرهان تلو البرهان فبدا محاميا بارعا ومنظرا ماهرا، وكما برع كاتبنا فى اختيار عناوين موضوعاته برع فى معالجة محتواها، ومن مثل عناوينه فى الفصل الأول « تشويه الحقيقة الإيمانية » و« عندما تهب الرياح الصفراء »، « الإسلام ليس بظاهرة علمية أو اجتماعية »، « دعوة تؤذى الضمائر »، و« خصائص الشريعة الإسلامية »، الأحكام الشرعية بين الضرورة والسماحة » .

- وفى الفصل الثانى الذى عنوانه « الشريعة والنزعة النفسية » نطالع من عناوينه « كيف يربى الإسلام الشباب »، « ملامح من التربية الإسلامية »، « توجيه الإسلام إلى تهذيب الغرائز » و« السلوك الإنسانى وارتباطه بالعقيدة »، « شئ من الإعجاز النفسى فى القرآن »، و« المفاهيم وصلتها بالتشريع الإسلامى » وكذلك الأمر فى الفصل الثالث الذى عنوانه « بين كيان المؤمن وإرادته » والفصل الرابع (الأخير) الذى عنوانه « ويبقى الحق صامدا » ويعالج فيه من الموضوعات مثار

الجدل « ظاهرة الاغتراب »، و« الإسلام والانفتاح الفكري » و« الإسلام وتصديه للفقر » و« الإسلام والدعوة إلى العمل ».

وقد توافر للكاتب حين بنائه لمقالاته وبحوثه كل ما يلزم الكاتب حين بناء مقاله أو بحثه من التمهيد للموضوع وعرضه لأفكاره وحسن الختام، كما توافر له ما ينبغي أن يتوافر للمقالة من سمات مشتركة مثل تحديد الموضوع والعرض الشائق للأفكار ودعم الموضوع بالأدلة والبراهين للإقناع بالفكرة، وقد استعان كاتبنا حين عرض لقضايا التشريع أو التربية وعلم النفس أو مناهج الفلسفة والثقافة بما يحتج به من المراجع المعاصرة والتراثية على السواء. فضلا عن جهد الكاتب وصبره الطويل في معالجة قضايا كتابه حتى اكتمل كتابه، فجاء من روائع ما كتب في مجاله، في بيان رائع وصَوَّغ جميل وأسلوب بليغ.

– ومن مقالات الكتاب مقالة بعنوان « الأحكام الشرعية بين الضرورة والسماحة » وهي من مقالات الفصل الأول، يعرض الكاتب في التمهيد لظاهرة التصور الخاطئ لضرورة الدين وحاجة البشر إليه وأهمية الشريعة الربانية في رعاية مصالح أفراد المجتمع الإسلامي وحماية الفرد والجماعة وإرساء الفضائل في المجتمع، ويرجع الكاتب ذلك إلى « وطأة العصبية والشهوة الذاتية والانحراف في تصور الوقائع والأهواء المتسلطة » يقول كاتبنا الأديب يوسف الملا: « ومن هذه الصور الجافة التي يعتنقها البعض هي: أن الدين مزيج من القسوة والانطواء والحرمان من ملذات الحياة ومتعتها، ودعوة إلى الاستسلام وقهر النفوس على ما تكره ... ويزعمون أن تعاليم الدين ومفاهيمه لا توأكب انطلاقات العصر ولا توجهاته، لذا يجب عزل الشرائع عن محيط الإنسانية^(١) .

– هكذا عرض الكاتب لقضية المقالة في التمهيد لها وحددها ثم يشرع في مناقشتها بأسلوب لطيف لا إسفاف فيه ولا تجريح وإنما يعرض للأمر بأسلوب العلماء الكبار وموضوعيتهم فيقول: « إن هذا التصور الخاطئ من المتجاسرين

(١) المصدر السابق ص ٤٩ .

والمتخلفين، واتجاههم النازع إلى كراهية العقيدة والافتراء عليها هو إجحاف بالدين وإهدار لجميع الحقوق والواجبات التي يأمر بها الله - عز وجل - في ظل شرعه السامى (١).

- ثم يسوق - فى عرضه وتحليله لقضية المقالة - الحجج والبراهين ليبين أسس الشريعة وغاياتها التى جاءت « لرفع الحرج والمشقة ودفع الضرر عن الناس ورعاية مصالح البشر وصيانة الحقوق لأصحابها وتحقيق العدل والتزامه بأحكام الدين ورفع الظلم عن النفس والعرض والمال والعقيدة ثم يسوق فى التذليل على قوله ذلك قول الإمام ابن قيم الجوزية الدمشقى فى عبارته البليغة التى تبرز أسس الشريعة وغايتها فيقول ابن قيم الجوزية فى مؤلفه أعلام الموقعين: «إن الشريعة الإسلامية مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى كلها عدل ورحمة ومصالح وحكمة، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة» (٢).

- ثم نرى كاتبنا الكريم يعرض فى مقالته لكل مبدأ وغاية من مبادئ وغايات الشريعة الربانية بالإسهاب والإطناب مستعينا بالنص القرآنى والحديث الشريف وأقوال العلماء والمراجع العلمية قديمها وحديثها، ويعرض لبعض القواعد الفقهية الشرعية التى ترعى مصالح الناس ويبسطها بالشرح والتحليل والتعليق.

- ويبقى جهد الكاتب وصبره فى إنجاز كتابه هذا مثار تقدير وإعجاب من كل المخلصين، فله منا التحية والدعاء بالتوفيق والسداد، ليثرى المكتبة العربية والإسلامية بمثل هذه الكتابات الجادة الهادفة على طريق النهضة الإسلامية المنظورة والدعوة إلى الإسلام وفق المنهج الوسطى سمة أهل هذا الدين وسر عظمته وبقائه وخلوده بإذن الله وحفظه.

* * *

(٢) السابق ص ٥٠.

(١) السابق ص ٤٩.